

المبحث الثاني

النثر

النثر في العهد الأموي:

أ. في عهد الولاية والإمارة (٩٢. ٥٣١٦هـ):

جرى الباحثون في دراسة النثر على تقسيم النثر إلى قسمين، نثر فني خالص، ونثر تأليفي^١، ولا شك أن الخطابة تعد من أبرز موضوعات النثر الفني في عصوره الأولى وقسيم الخطابة الرسائل، وهي صنفان، رسائل ديوانية، وأخرى أخوية، وواضح أن الرسائل الديوانية هي تلك المراسلات الرسمية التي جرت بين الولاة وقادتهم، وهي تشتمل على توجيهات إدارية وأوامر سياسية أو عسكرية، ويندرج ضمن هذا الصنف من الرسائل، كتب المبايعة وكتب التولية، وعقود الأمان، وكتب الصلح، والتوقيعات الأدبية، التي استخدمت في الجواب على طلبات ذوي الحاجة، وما كان يرفع للأمراء، والوصايا والمحاورات.

تواجه الباحث مشكلة رئيسة حين يبحث هذا الموضوع، وتتمثل في قلة المصادر التي احتفظت بالنصوص النثرية، في عصور الأندلس المبكرة، ولكننا نشعر بأن مسوغات توفر النثر الفني كانت أكثر من مسوغات الشعر، وذلك يتصل بطبيعة كل منهما ودوره، ومدى الحاجة إليه في مثل ظروف الأندلس.

كانت الحاجة إلى النثر شديدة، اقتضاها اتصال حياة الفاتحين بالحروب، واقتربها بالجهاد الإسلامي زيادة على النزاعات والثورات الداخلية التي كانت تحصل، كل تلك الظروف اقتضت توفر النثر بأنماطه المختلفة، وفي مقدمتها الخطب والدعوات الحماسية، لاستنفار المقاتلين فضلاً عن الخطب الدينية التي كانت جزءاً طبيعياً من حياة المجتمع العربي الإسلامي في الأندلس.

ولكن الباحث لا تصل بين يديه إلا نصوص يسيرة، تقترن ببعض الأحداث، ولعل السبب في ذلك هو نفسه الذي جعل الشعر العربي منذ عصوره القديمة ينتشر ويندفع أكثر من صنوه النثر العربي فإن رواية الشعر أيسر، وأسير من النثر، وذلك أدى إلى شيوعه وكثرة نصوصه بينما انتهى بالنثر إلى الشحة وقلة ما وصل إلينا منه.

لقد تناول حكمة الأوسي^٢ في دراسة متأنية، أنماط النثر التي أشرنا إليها آنفاً، ورأى أن النصوص التي دارت في مجال المراسلات السياسية، في عهد الولاة، لا تعد نثراً

١ ينظر الأدب الأندلسي، هيك، ص ١١. فصول في الأدب الأندلسي، ص ٥٩.

٢ فصول، ٥٦، ٥٩.

أندلسياً، لأنها كانت شديدة الصلة بالبيئة المشرقية أما المراسلات في عهد الإمارة فهي تلك التي تبادلها أمراء الدولة الأموية، مع قادتهم وعمالهم وولاة المدن التي كانوا يولونهم عليها، وهي تتناول أجوبة هؤلاء القادة والولاة، وقد أورد ابن عذارى صوراً من تلك المراسلات، ويبدو أنها كانت بشكل عام تتجه إلى الإيجاز وهي سمة من سمات البلاغة في التعبير، وهي كذلك سمة كانت تنسجم مع الذوق العام للكتابة، غير بعيدة عن جذورها المشرقية.

ومما يشير إلى شيوع هذه الصفة أن عبد الرحمن الداخل طلب من كاتبه أمية بن يزيد أن يكتب إلى بعض عماله كتاباً يلومه على ما بدر منه من تقصير في عمله، فلما أطال أمية في الكتابة أمر بتمزيق الكتاب، وكتب بخط يده^١ "أما بعد، فإن يكن التقصير منك مقدماً فعند الاكتفاء يكون لك مؤخراً، وقد علمت بما قدمت فاعتمد على أيهما أحببت" ومالنا نطلب الأدلة التاريخية وما بين أيدينا من نصوص نثرية تتصل بعصر الولاية والإمارة بل حتى عصر الخلافة كلها تتسم بالإيجاز.. وقد مضت معنا أمثلة كثيرة لأنماط متنوعة، من نثر عبد الرحمن الداخل لهذه السمة فيها نصيب.

ويبدو أن كتب الصلح كانت تخرج على قاعدة الإيجاز للضرورات التي تتصل بها والتفصيلات التي يُنص عليها في تلك الكتب، ومن النصوص التي حفظت، كتاب كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لثُمدير بن غندرس، وقد سميت باسمه مدينة من مدن الأندلس، أوردته الضبي في البغية ونسخته^٢:

"بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غندرس، أنه نزل على الصلح وأن له عهد الله وذمته وذمة نبيه ﷺ ألا يقدم له ولا لأحد من أصحابه، ولا يؤخر، ولا ينزع عن ملكه، وأنهم لا يقتلون، ولا يسبون، ولا يفرق بينهم، وبين أولادهم ولا نساءهم، ولا يكره على دينهم، ولا تحرق كنائسهم، ولا ينزع عن ملكه، ما تعبد ونصح وأدى الذي اشترطنا عليه..." وفي تنمة الكتاب شروط الصلح في رجب سنة ٩٤ من الهجرة.

وواضح أن الكتاب يحذو حذو كتب المسلمين الأوائل بالاستهلال بالبسملة وتقديم اسم المرسل على المرسل إليه، وتذييل الكتاب بتاريخ تحريره، وهو من أقدم النصوص الموثوقة في الأندلس باستثناء الخطبة المنسوبة إلى طارق بن زياد التي سنتوقف عندها عما قريب.

ومن الرسائل الديوانية في آخر عهد الولاة، الرسالة التي حررها خالد بن يزيد كاتب يوسف الفهري ورسوله إلى عبد الرحمن الداخل، بعد أن علم بتزوله في الأندلس وقد

١ ينظر البيان المغرب، ٦٦/٢، ٨٩، ١٠٧، ١٠٨.

٢ نفسه، ٥٨/٢.

٣ نصوص عن الأندلس، العذري، ص ٤. ٥. بغية الملتبس، ٢٧٤. الروض المعطار، ١٣١. وينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، ص ٥٥، ط ٤، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٩.

حفظ لنا ابن عذاري جزءاً من هذه الرسالة^١.

كذلك وصلت إلينا صور متنوعة من النثر الفني، منها ما يطلق عليه: (أدب الوصايا) فقد وجه الحكم الرضي (١٨٠. ٢٠٦هـ) إلى ابنه عبد الرحمن حين شعر بدنو أجله وصية فقال: "إني قد وطدت لك الدنيا، وذللت لك الأعداء، وأقمت أودّ الخلافة، وأقنت عليك الخلاف والمنازعة، فأجر على ما نهجت لك من الطريقة، واعلم أن أولى الأمور بك وأوجبها عليك، حفظ أهلك، ثم عشيرتك، ثم الذين يلونهم من مواليك، وشيعتك، فهم أنزل ثقتك، وإياهم واسي من نعمتك، وعصابتهم استشعردون المتوثبين إلى مراتبهم، من عوام رعيتك... ولا تدعن مجازاة المحسن بإحسانه، ومعاقبة المسيء بإسائته فإن التزامك لهذين، ووضعك لهما موضعهما، يرغب فيك ويرهب منك"^٢.

ويحفظ لنا ابن عذاري نصوصاً كثيرة للرسائل والخطب المنسوبة أو التي كتبها ملوك بني أمية في الأندلس، ومن ذلك خطبة لعبد الرحمن بن الحكم (الأوسط) (٢٠٦. ٢٣٨هـ) ورسالة^٣ لابنه محمد عبد الرحمن (٢٣٨. ٢٧٣) خاطب بها كاتبه عبد الملك بن عبد الله، ومحاورة جرت بين الأمير عبد الله ومولى من مواليه^٤، ومن نثر غير الأمراء، الرسالة التي كتبها وليد بن عبد الرحمن بن غانم، إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن يسأله أن ينيط به بعض المناصب فوق على رسالته:

"إن الله شاكر يحب الشاكرين، وقد ناديت فأسمعت، ولكل أجل كتاب".

ويرى حازم عبد الله أن الرسالة والرد عليها يمثلان النثر والرسائل. بصورة خاصة. في القرن الثالث الهجري^٥، ويحفل كتاب أخبار مجموعة بأمثلة نثرية كثيرة للأمير محمد، بين محاورات بينه وبين كتابه ووزرائه، ومكاتبات في شؤون الدولة^٦. ومن الدراسات الحديثة التي حفلت بهذه النصوص النثرية كتاب أحمد هيكل^٧.

واليك نص خطبة عبد الرحمن الأوسط، وهي أول ما خطب به بعد وفاة أبيه الحكم: "الحمد لله الذي جعل الموت حتماً من قضائه، وعزماً من أمره، وأجرى الأمور على مشيئته، فاستأثر بالملكوت والبقاء، وأذل خلقه فما (لهم نجاة من) الفناء، تبارك اسمه، وتعالى جده، وصلى الله على نبيه ورسوله وسلم تسليماً، وكان مصابنا بالإمام مما جلت به المصيبة، وعظمت به الرزية، فعند الله نحتسبه، وإياه نسأل إلهام الصبر

١ البيان المغرب، ٤٥/٢.

٢ المقتبس، (الجزء الخاص بإمارة عبد الرحمن الأوسط). نسخة المستشرق بروفنسال المفقودة. نقلًا عن الأدب الأندلسي، ١١٧.

٣ البيان المغرب، ١٠٧/٢. ١٠٨. وهناك رسالة أخرى تماثلها أوردها صاحب أخبار مجموعة، ١٢٩.

٤ البيان المغرب، ١٥٤/٢.

٥ أخبار مجموعة، ١٣١، ط دار الكتب الإسلامية، ١٩٨١، ومن توقيعاته كذلك حين أسرقائده هاشم بتهور منه: "هذا أمر جناه على نفسه بطيشه وعجلته!". البيان المغرب، ج ١٠٣.

٦ النثر الأندلسي، ٧٣.

٧ ينظر أخبار مجموعة، ١٢٧. ١٣٠.

٨ الأدب الأندلسي، ١٧٥. ١٧٧.

وإليه نرغب في كمال الأجر والذخر، و(قد) عهد إلينا فيكم بما فيه صلاح أحوالكم
ولسنا ممن يخالف عهده، بل لكم لدينا المزيد إن شاء الله".^١
ومن الملاحظات الحرة بالتسجيل، كثرة الكتاب الذين استخدموا في دواوين الأمراء،
وقد كان يتفق استخدام الأمير أكثر من كاتب في الكتابة، على الرغم من أن الأمراء
أنفسهم كانوا على جانب من البلاغة، بحيث احتفظت المصادر بنصوص متنوعة لهم،
ومن أمثلة هؤلاء الكتاب: خالد بن يزيد، الذي استخدمه يوسف الفهري (١٤٢.٧٢هـ)،
ثم اتصل به أمية بن يزيد، واشتغل كلاهما بالكتابة لعبد الرحمن الداخل.
ومن الكتاب الذين استخدمهم هشام بن عبد الرحمن، فطيس بن عيسى، وخطاب
بن يزيد.

ومن كتاب الحكم بن هشام: فطيس بن سليمان، وحجاج المغيلي.
ومن كتاب عبد الرحمن بن الحكم: عبد الكريم بن عبد الواحد، وعبد الله بن
محمد، ومحمد بن سعيد الزجالي، وسفيان بن عبد ربه، وعيسى بن شهيد.
واستخدم الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨.٢٧٣هـ) ثلاثة كتاب هم: عبد الملك بن
أمية، وحامد بن محمد الزجالي، وموسى بن إبان.^٢ ويلاحظ أن عدداً من الحكام
استخدم كتاباً من غير المسلمين كما حصل للأمير محمد بن عبد الرحمن الذي
استخدم غومز بن أنطونيان.

واستخدم المنذر بن محمد (٢٧٣.٢٧٥هـ) اثنين: سعيد بن مبشر، وعبد الملك بن
عبد الله بن شهيد.

وأما كتاب الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥.٣٠٠هـ) فثلاثة: عبد الله بن محمد
الزجالي، وعبد الله بن محمد بن أبي عبدة، وموسى بن زياد.^٣
وتبدو ظاهرة الأسر الأدبية، على نحو ما نجد في عبد الله بن محمد بن أمية بن يزيد،
توفي الابن سنة ٢٤٠هـ وتوفي الأب سنة ٢٢٦هـ وتوفي الجد سنة ١٥٤هـ، وكانوا من بيت
نجابة.

وفضلاً عن أسماء هؤلاء الكتاب الذين عملوا لأمراء الأندلس فإن كتب التراجم
تحفل بأسماء عدد آخر منهم لم تصل إلينا كتاباتهم، ولم يتصل ذكرهم بالأمراء.^٤
وتبدو أهمية الكتابة ومكانة صاحبها، في المجتمع الأندلسي، من وصف ابن سعيد
للخطط الأندلسية حيث يقول عن كاتب الرسائل "وله حظ في القلوب والعيون عند
أهل الأندلس وأشرف أسمائه الكاتب وهذه السمة يخصه من يعظمه، وأهل الأندلس

١ البيان المغرب، ٩٠/٢، ٩١. وينظر الأدب الأندلسي، ١٧٥، ١٧٦.

٢ المقتبس، مكي، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٠.

٣ أخبار مجموعة، ٩٤.

٤ ينظر في هؤلاء الكتاب: الأدب الأندلسي، هيكل، ٧٠، ١١٥، ١٧٤. وفصول في الأدب الأندلسي، ص ٥٤، ٥٥.

٥ ينظر تاريخ الأدب الأندلسي، ٣٢٦/١. فصول في الأدب الأندلسي، ٥٥.

كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة^١. ويصف ابن سعيد كيف تتسلط الألسنة على الكاتب الذي يلحن أو يخطئ في الكتابة وكيف يطعنون فيه، وهذا ما حصل فعلاً بالنسبة لكاتب الأمير محمد بن عبد الرحمن (عبد الملك بن عبد الله)، حيث كان هاشم بن عبد العزيز كثير التتبع لهفواته وسقطاته والتشنيع عليه^٢. والنص المتقدم يوضح لنا مدى اهتمام الأندلسيين بالكتابة وعنايتهم بها.

خطبة طارق بن زياد:

تداول المصادر التاريخية والأدبية ذكر هذه الخطبة وذلك لاقتربها بحدث مهم في تاريخ الأندلس ولاتصالها بشخصية من الشخصيات البارزة في التاريخ الإسلامي فإذا صحت نسبتها إلى طارق فستكون أقدم نص نثري أدبي ولا نعرف لطارق غير هذه الخطبة وأبيات ثلاثة يحدثنا فيها عن عبوره إلى الأندلس، رواها الحجاري في المسهب^٣. ومن الغريب ألا ترد الخطبة في مصادر التاريخ الأندلسي المبكرة التي تناولت تفاصيل دقيقة عن فتح الأندلس، باستثناء النص الذي أورده عبد الملك بن حبيب (٢٣٨هـ) في كتابه استفتاح الأندلس^٤ والنص الذي أورده ابن قتيبة^٥ (٢٧٦هـ) في كتابه الإمامة والسياسية منقول عن ابن القوطية (ت٣٦٧هـ) في تاريخ افتتاح الأندلس، وروايتها للخطبة تختلف اختلافاً كبيراً عن النص المتداول وأقدم رواية للخطبة جاءت عند مؤرخ مشرقي هو ابن خلكان (ت٦٨١هـ) ويبدو أن صاحب النسخ نقل عنه واستهل الخطبة بقوله: "قال بعض المؤرخين"^٦.

وقد وقف عدد من الباحثين بالدراسة المتأنية لنص الخطبة التي يتسرب الشك في صحة نسبتها إلى القائد طارق بن زياد ومنهم أحمد هيكل في كتابه الأدب الأندلسي سنة ١٩٥٨، وعبد الرحمن علي الحجي في التاريخ الأندلسي سنة ١٩٧٦^٧. من أهم عوامل الشك في الخطبة ما ذكرناه آنفاً من عدم ذكر المصادر الأندلسية المتقدمة لها.

١ نفع الطيب، ٢١٧/١.

٢ ينظر الحوار الذي جرى بين الأمير محمد وهاشم في هذا الخصوص، البيان المغرب، ١٠٨/٢.

٣ النفع، ٢٦٥/١.

٤ حققه د. محمود علي مكي، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، العدد ٥، ١٩٥٧.

٥ الإمامة والسياسة، نشر النص الخاص بالأندلس مع كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية (ت٣٦٧هـ)، ١٣٨، ١٣٩ وفي طبعة الحلبي ١٩٣٧ للإمامة والسياسة لا نجد هذه الخطبة، كذلك أورد ابن هذيل الأندلسي (ت٧٦٣هـ) برواية مختلفة في كتابه تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس، ص ٧٠، ٧١. كذلك ينظر سراج الملوك، لأبي بكر الطرطوشي (ت٥٢٠هـ). صلة السمط وسمة المرط في شرح سمط الهدى في الفخر المحمدي، ابن الشباط المصري (ت٦٨١هـ).

٦ جاءت الخطبة في نفع الطيب، ٢٤١/٧ في ٢٤ سطرًا.

٧ كذلك شك د. حكمة الأوسي في الخطبة في كتابه فصول في الأدب الأندلسي، ص ٦١، وينظر مقال د. أحمد بسام أبو ساعي "خطبة طارق بن زياد وهل قالها حقاً"، مجلة العربي، ٩٦/٢٩٣، ٩٨، الكويت، ١٩٨٣.